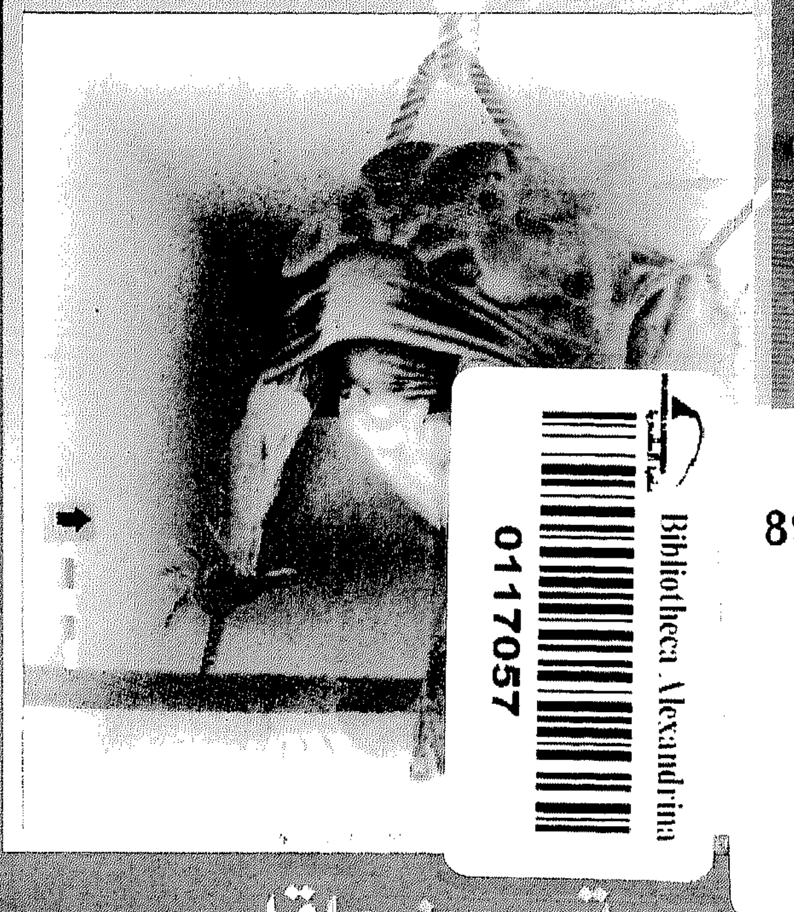
العاشقة والطاغية

إسماعيل كاداري

قصة



ترجمة : معن عاقل

العاشق والطاغية

الكتاب. العاشق والطاغية

المؤلف: إسماعيل كاداري

المترجم. معن عاقل

لوحة الغلاف: للفنان الكويتى سامى محمد

الإخراج. آمل عصفور

الطبعة الاولى1999

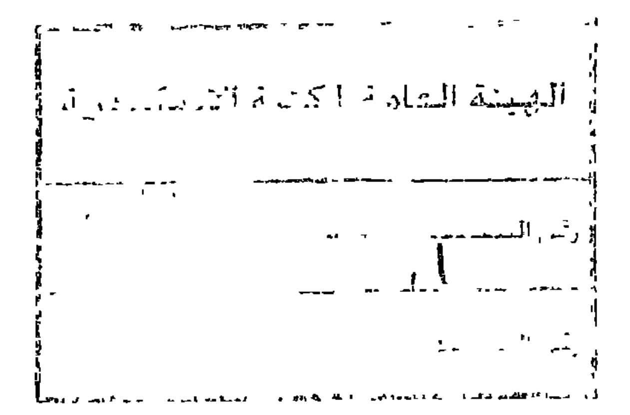
دار آرام للثقافة والكتب

سورية - دمشق - هاتف 6816234-6316870

تلفاكس 6316870- ص. ب 36130

الكمبيوتر والإشراف الفنى دار آرام

إسماعيل كاداري



العاشق
و
الطاغية

ترجمة:معن عاقل

1

بينما كنت آغذ السير في شارع Ban عصر يوم رمادي، من تلك العصريات التي لا يرتجى منها سوى لحظات مكرورة ، وتعوزها الجاذبية، وكما لو كان هذا الجو البائس لم يكن يكفي، لمحت د.ت قادماً نحوي على الرصيف المقابل، وهو بلا ريب أكثر كائن مضجر يمكنني تخيله. فات أوان التواري، حتى بواسطة مناورة خرقاء. فالشارع الضيق حرمني من آية إمكانية للتهرب. لعله كان من الأجدى آن آصرخ فيه من بعيد : «لا ارغب برؤيتك، إنك تزعجني» بدل آن آتظاهر بعدم ملاحظة وجوده.

لم يسمح لي الوقت بانتقاده. وكعادته في التزلف والنفاق، نزل عن الرصيف وانحرف متجهاً نحوي.

قلت لنفسي: حسن، هذه ليست نهاية العالم. سيسألني مراراً، بحماقة وبشكل آلي «هل من جديد كيف حالك؟ »إلى أن ينتهي هذا الفاصل الممل وينصرف كل واحد منا لشأنه.

قال وهو يصافحني:

- إذن، هل من جديد؟ كيف حالك؟

فكرت: شخصية كريهة! كيف لم تتحقق بنفسك أبداً من الاشمئزاز الذي تثيره؟ وإذا خامرك مرة أدنى شك بذلك، فلماذا تحشر أنفك فيما لا يعنيك؟ أما إذا لم يخطر هذا ببالك، فذلك داء عضال إذن..

سألته مردداً عبارته دون أن أهتم بالأثر الذي قد تحدثه عليه لا مبالاتي الواضحة:

- هل من جديد؟.

- لا شيء، حقاً لاشيء، وأنت؟.

- ما زالت الرتابة نفسها.

أوشكت أن أصرخ: «قذر» ففي مثل هذا اليوم الذي كان يبدو لي في غاية الكآبة، بينما أنا في أمسّ الحاجة

إلى حدوث شيء يقطع الرتابة، اختاره القدر السيء، هو بالتحديد، ليظهر أمامي!

قلت له باللهجة الرتيبة نفسها وأنا مذهول لأن الكلمات تحولت في فمي بمنتهى اليسر إلى اتجاهها المضاد:

- حسن، إلى اللقاء.

أجاب:

- إلى اللقاء.

ومد يده ليصافح يدي بفتور، بينما كنت أتمالك نفسي لئلا أصرخ «أوف!».

ولم أكد امشي ثلاث خطوات حتى سمعته يناديني ثانية.. لم أصدق أذني: هل يمكن لهذا الطير المشؤوم أن يظهر مثل هذا العناد؟ التفت كما لو أنه أطلق رصاصة في ظهري. لا بد أن هيئتي قد عبرت عن مزاجي بوضوح حتى أنه سألني:

- ماذا دهاك؟.

قلت موشكا أن أسخر منه:

- ماذا دهاك أنت؟.

لكنه استطرد وهو يبتسم كعادته:

- نسيت أن أخبرك... ألا تعلم أن لاسغيش بورادسي خاض هذا الصيف مغامرة...

- ماذا تهذي؟.

كان صوتي قد اختنق إلى درجة أنه لم يفهم، فسأل:

- ماذا قلت؟.

- ماذا قلت أنت؟.

كررنا أسئلتنا مرتين أو ثلاث كعابرين يمنع أحدهما الآخر من المرور وهما يتواجهان على الرصيف. انتهى هو نفسه إلى التحرر من ارتباكه.

- ماذا حدث لفهمك؟ قلت لك مغامرة غرامية. أو إن شئت، قصة امرأة.

رددت:

- مغامرة غرامية، قصة امرأة . . .

حاولت أن أسأله: «اخبرني، ماذا دهاك لتنشر أنباء سارة جداً في حين أنك الكائن الأكثر إثارة للتشاؤم في هذا الكون ؟».

وفي أثناء ذلك، هجرني حقدي نهائيا. كان هذا يشبه إلى حد ما البناء الإسمنتي عندما ينزع منه فجأة التسليح المعدني: عندئذ، يمكن لأي هبة ريح وأخف نسمة أن تحطمه.

ظل مغروساً على الرصيف، وترامت ابتسامة على وجهه بعد أن شعر بانتصاره المتأخر دون شك.

– يذهلك هذا، ها؟ . . . ثمانون سنة . . .

حدّقت فيه. لعله كان ينتظر أن أنهال عليه بالضرب أو أركع على ركبتي لالتمس المغفرة عن الاحتقار الذي كافأته به زمناً طويلاً، أو أن أقوم بالأمرين معاً، حتى يصطدم كل واحد منا بمركز الشرطة أو مديرية مشفى الأمراض العقلية؟.

بيد أن أياً من هذين الاحتمالين لم يحدث. بل حدث احتمال ثالث، أبعد عن التوقع من كل السخافات التي قد يتخيلها ذهني في أشد ساعاته تيهاً.

قلت له بنبرة ملؤها الاحترام وشبه ملاطفة:

– ما رأيك أن نشرب القهوة؟.

جحضت عيناه. نظرت إليه مواربة لأتجنب أن ألفي نفسي في محور بريقهما المفاجئ. لم يدعه أحد بالتأكيد

إلى شرب قدح منذ سنوات. كان كل واحد يفرّ منه كأنه الطاعون: ليس فقط رفاقه في العمل وفي الكلية، وأولئك الذين غمرهم بوده عندما هجرتهم صديقاتهم الصغيرات، والذين أقرضهم النقود أو حمل لهم الورود إلى المشفى، بل وحتى السكارى الذين وجدوا فيه يوماً صاحباً في الشراب، وأبناء عمه المقربين، ورفاق طفولته، وحتى أولئك الذين لم يفترقوا عنه أبداً حتى ذلك الحين، أو الذين كانوا آخر من هجره: أولئك الذين كان يمارس معهم العادة السرية في يوم عطلة على طرف واد.

فإذا بي أنا غير المسرور لدعوته، أسحبه من كمه وأقوده نحو مدخل المقهى الأقرب، كأني أخشى أن يهرب مني.

2

حين خرجنا ثانية، بدا لي كل شيء مختلفاً: العصر الكئيب، والسماء، والشارع المزدحم.

فجأة شعرت أن د.ت قد انقلب إلى إنسان طبيعي بنظري، كأن إنسان نياندرتال الذي كنت أراه فيه حتى ذلك الحين، قد تحول خلال برهة إلى إنسان معاصر! نظر إلي وقال:

- أمر غريب، لا أفهم لماذا أثّر هذا فيك؟ لم يكن ليخطر ببالي أبداً أن ذلك قد يخلق لديك مثل هذا الانطباع الـ ...

كانت كلمة انطباع باهتة جداً إزاء ما أوقظته عباراته في نفسي على الفور قبل أن أتابع ذهولي واضطرابي وتأثري الفائق. والآن بعد أن تركت د.ت ورحت أتسكع على الجادة حالماً، غمرتني كلياً موجة

الحماس التي كانت قد استبدت بي. لاسغيش بورادسي عاش ذلك الصيف قصة غرامية.. أخذت أردد دون توقف هذه الكلمات التي بدت لي مغلفة بقرع الأجراس المنسي.

كان د.ت قد وبخني بعد ذلك:

- غريب! أنت لا تعير اهتماماً فائقاً لهذا النوع من القذارات.

امتعضت لما قاله، ولو أني كنت أمام حدث غير هذا لقلت له: «كيف تتجرأ على أن تنعت بالقذر الحدث الإلهي الوحيد الذي وقع خلال السنوات الأخيرة؟» إلا أنه لم تكن لدي القدرة على الغضب وأنا مقتنع أن ما سمعته للتو لا يمكن أن يكون سوى إشارة من السماء. رفعت رأسي نحوها على أمل أن أجد في نهاية عصر ذلك اليوم تجل لتلك الإشارة بين السحب الساكنة التي بدت لي منذ هنيهة كأنها رمز البلادة الرسمية.

3

أحببت دوماً لاسغيش بورادسي حباً جماً، لكن بمودة خاصة لم تخل قط من بعض الأسف، ونوع من الندم حياله.

كان الشعور الذي أكنه له، المرافق لهذا الأسف، وهذا النوع من الندم، يتخذ بعداً خاصاً، ملغزاً وغير طبيعي.

وكما سحرتني أشعاره، وحتى أكثر، سحرتني المرحلة التي كانت تشارف على الاندثار، في الوقت نفسه الذي كان يشارف هو فيه على الموت. وهي مرحلة يصعب تحديدها: لا تتطابق مع الملكية ولا الجمهورية ولا مع الحقبة التي سبقت التحرير. إنه زمن آخر يمكنه أن يواكب هذه المراحل الثلاث مع بقائه غريباً عنها في آن معاً. وما كنت أحبه فيه، أكثر منه هو نفسه، أسلوبه المؤثر في الحلم الذي لا يضاهى والأثيري.

مضى على هذا سنوات كان فيها حياً وغائباً في آن معا. كنا قد أهملناه. ولم نعد ندعوه إلى أي حفل. لكن تبكيت الضمير لنسيانه كان يتضح دون شك في قلب أي احتفال، وفي بهجة أي عيد. حتى لو آمكن لهذا الشعور أن يبدو مثل كل المشاعر التي تخصه، شاذاً، خفياً ومنتشراً، شبيهاً بلوم أيقونة . . .

وبما أننا تركناه وحيداً على هذا النحو، فإننا انصرفنا عن كنز ما كان ينبغي إهماله، وأقلعنا عن الحلم. كأنه هو الغائب الكبير عن صالات اجتماعنا ذات الأنوار الساطعة، قد كشط الطلاء الذهبي البسيط للثريات القديمة ليزين به نعشه الخاص.

بات الآن بعيداً جداً. ومن المستحيل إعادته. أخذ نعشه المغطى بالذهب والبرونز يبتعد ببطء عن مستمعينا الكئيبين المرهقين من الجلسات المكتملة ومن العبارات الركيكة أو الواشية. وبفعله هذا، كان يحمل إلى القبر شيئاً ما منا جميعاً.

ما من مرة، لم نتساءل كشهود يتأملون معبداً غرق في الماء: هل رحيل هذا الشاعر نهائي. أليس بوسعنا إبقاءه فترة أخرى أيضاً بيننا؟ ليس لما فيه خير له، بل من أجل خلاصنا الخاص! كنا نعلم جميعاً أن هذا الاختفاء محتوم، وأنه لم يعد له مكان في هذا الزمن، وكانت تغمرنا بالمرارة فكرة أننا نحن أيضا ربما لم يعد

لنا مكان في زمننا، مع أننا صنعناه ونحن نشق طريقنا في الزحام، ونتشبث به بأظافرنا.

كانت ألبانيا توشك إذن أن تشهد اندثار هذه الجوهرة. . . وإذ بالشاعر ينبعث فجأة من جديد في اللحظة نفسها التي فقدنا فيها كل أمل، وهزّ الحلم عرفه المتألق. فهو الذي اعتبر ميتاً بفرح سيء من البعض وبألم عميق فينا، أنجز فجأة عملاً غير مألوف بحيوية فائقة إلى درجة أن كل واحد منا صار يمكن اعتباره بالنسبة له ميتاً. كان قد أنجز عملاً يليق بشاعر، عملاً تقادم عليه الزمن، بائد وفروسي، ومذموم من كل هيئات المنطقة، والجلسات المكتملة، والمؤتمرات والعقيدة... قصة حب لرجل يبلغ الثمانين. في ناحية ريفية صغيرة يبدو فيها مجلس هيئة الحزب مهيباً أكثر من أي مكان آخر.. .

كان ذلك كما لو أننا سمعنا قرع أجراس كاتدرائياتنا المختفية منذ القرن الثالث عشر، والمنتمية إلى تلك الفترة التي كانت تكشف فيها بلا ريب الكثير من نبالتها.

أهو ثأر من الإهمال الذي كان يحجبه؟ أم رد فعل على التهالك في رمل الحياة اليومية، وسأم الاجتماعات، وأنظمة الواقعية الاشتراكية، والروايات الدوغمائية والجلسات المكتملة النصاب التي توجهها دعوات إلى تثقيف الكتّاب، وإلى التدرب على الحياة والواجبات تجاه الحزب والنضال؟.

تذكرت كما في زوبعة مجنونة كل اجتماعات الكتّاب والمكائد والعراقيل والنقد الذاتي الإلزامي والمخزي، والبعثات في نهاية إعادة التأهيل إلى العمل الإنتاجي، وحفر الأقنية. كل ذلك يصاحبه التأنيب: «لنكن بسطاء! لنكن بسطاء! لنكن بسطاء!».

كانت قمصانهم تتجعد باطراد، وترسم التغضنات على جباههم أخاديد تتزايد عمقاً وتشعباً. كانت تلك الأخاديد التي تعزى إلى العمر أو المرض تتميز عن تلك التي تحفرها شمس التعاونيات.

في نادي الكتّاب، كان الطعم المرّ للاجتماعات التي يوشى فيها بالمؤلفين «الأحرار» يحتاج إلى بعض الوقت للزوال. لكن المزعج أكثر أيضاً هي المجالس الأخرى التي لم يكن فيها شيء سوى السراب، بدءاً من الأخطاء المزعومة للمؤلفين حتى الكآبة المصطنعة لعضو المكتب السياسي الموجود في الاجتماع. لعلهم كانوا يتوقعون اجتماعاً من نوع جديد ينتقدون فيه أولئك الذين يهجسون بالمناصب العليا، إن لم يكن شكلاً آخر، الشيطان وحده يعلم ما قد يحدث فيه أيضاً...

لعل المشاركين الخائفين والقلقين في آن معاً، أحسوا بتأثر حقيقي خلال الاجتماعات الأولى الأكثر مأساوية، بينما كل شيء في الاجتماعات الأخرى لم يكن سوى كذب مضاعف، وبعبارة آخرى، كذبة محمية بغلاف كذبة

أخرى، وهذا الغلاف يؤمن الحماية للكذبة الأولى في حال أوشك غلافها الخاص على التمزق. إنها الصحراء، وأينما اتجه النظر، لم يكن يحتضن إلا زوابع الرمل.

في إحدى تلك الاجتماعات، لاحظنا حضور لاسغيش بورادسي. كان يبدو خارجاً من نعشه الخاص، وهو يرتدي بدلة سوداء قديمة، ويعتمر قبعة لدنه عريضة الحواف تعود لأعوام الثلاثينيات. جلس في أحد أركان الصالة دون أن يخاطبه أحد، ولم يتعرف الجالسون بجانبه عليه ظاهرياً. كان انتباه الجميع مركزاً على الشهيدين الوهميين ت ر. و. ت ك. وقد سخر الناس من شجاعتهما طيلة أسبوع. جرأة خارقة كما قيل، سابقة لأوانها بلا شك، ومبالغ فيها حتماً فيما يخص البطل الإيجابي في الأدب. لا سيما وأنهما انتقدا قبل بضع سنوات خلت على أخطاء من الطبيعة نفسها، في مناخ متوتر أثار جدلاً خفياً حول طبيعة الفن في عهد الواقعية الاشتراكية...

- هيا... هيا، هذان الشخصان شجاعان.. وليس مجانياً أن يعتبر الشعراء مخبولين قليلاً..

هذا النوع من التعليقات هو الذي دفع بورادسي لارتداء طقمه الأسود المميز في الحفلات السابقة والمجيء لحضور الاجتماع.

ساد الصالة صمت عميق. وقد أبدى المنتقدان وجهاً شاحباً، مشوباً بحمرة خفيفة. أما سحنة عضو المكتب السياسي الذي جاء للاستماع إلى نقدهما الذاتي، فكانت صارمة جداً، بل أكثر إحمراراً مما كانت عليه في الاجتماع الأخير.

- أيها الرفاق، كنا وسنبقى دوماً، وإلى الأبد، مؤيدين للبطل الإيجابي، لكننا - نحن المخطئين في هذا الشأن - سهونا عن الشرح بوضوح حيث أن بعض النواقص التي قد تظهر، وبعبارة أخرى، هذا العيب أو ذاك من العيوب الإنسانية، كانعدام الثقة على سبيل المثال، يمكن أن تؤذي قضيتنا. وفيما يخص جو رواياتنا، وهو الجانب الذي انتقدنا عليه منذ سبع سنوات، سنظل متشبثين بسيادة الزمن الربيعي وسماء الاشتراكية الزرقاء على الضباب و قبل كل شيء المطر...

رفعت البرطمة الأولى المتساهلة على وجه عضو المكتب السياسي موجة الانفعال في الصالة. أجل كان الحزب متسامحاً حقاً. وستقدم التهاني للكاتبين الضالين عند نهاية الاجتماع.

- مرحى، لقد خاطرتما برأسيكما من أجل الفن، لكن الحزب، ولا بد من الاعتراف بذلك، تفهمكما، كما فعل ذلك منذ سبع سنوات خلت، عندما فقدتما صوابكما - آه! يا للجرأة، وبالجسارة الشعراء الصادقة!- وأكدتما أن

غمامة صغيرة، وسحابة ضباب تدفعها نسمة في سماء الاشتراكية تجعلان الأمر أكثر قابلية للتصديق، و...

صار الجميع بدءاً من الآن مقتنعين بأن هذه الحادثة المؤثرة عندما ستذكر في الاجتماعات المستقبلية كأنها جزء من الماضي، أما عضو المكتب السياسي الذي سيكون بشعر أشيب فإنه سيتعجب وهو يربت على أكتافهم قائلا:

– آنذاك كنتما تلعبان دور المتمردين، هل تذكران؟.

أما هما، فسيجيبان بابتسامة، محمرين من الخجل وخائفين بعض الشيء:

– من الأفضل القول إنه يجب التسامح مع الفتيان أيها الرفيق ر...

لم يستطع لاسغيش بورادسي البقاء حتى يشهد النهاية المرجوة للاجتماع. وعند العبارات الأولى للنقد الذاتي، خرج كما دخل، دون أن يلفت الأنظار إليه ليعود إلى نعشه. بلا شك، كان قد تلا الصلوات لأجلنا و هو يبتعد، كما يتلوها الناس من أجل أولئك الذين ماتوا، بدلاً من أن يتلفظ بشتائم اللعنة.

منذ سنوات ونحن نعتبره ميتاً، وكان هو أيضاً يعتبرنا بمثابة الأموات. كان كالقمر البارد الذي يجعل

نثرات الصوان تتلألأ في الصحراء حيث كل شيء، حتى الظلال، يمكث دون حياة.

كان ذلك الاجتماع ظهوره الأخير على الملأ وقد انتظر الناس طويلاً رؤيته ثانية، حتى دون أن يفكروا إن كانوا يستحقون ذلك. تساءلوا بأي شكل يمكن أن يحدث ظهوره الجديد، لكن ودون أن يجدوا إجابة على هذا السؤال. لم يكن يناسبه أي مظهر أو شكل من حياتنا: لا همومنا ولا سأمنا، ولا حماستنا الأدبية ومجادلاتنا وصخبنا، ولا حتى علاقاتنا المحتملة.

لم يشك أحد في أنه لم يعد ينتظر شيئاً منا، على الأقل منذ هذا الاجتماع الذي تلاشى فيه أمله الأخير لكن كل واحد منا راح يتساءل هل ما يزال من حقنا أن نأمل شيئاً منه؟.

كان قد شوّق الناس إليه. وإذا به فجأة، في يوم من أشد الأيام التي أتيح لنا أن نحياها كآبة،يمتلئ إشفاقاً بحالنا .لقد خطر له، مدفوعاً بهذا الشعور، أن يقدم لنا أثمن هدية يمكن أن يهبها ميت: قصة حب.

4

كنا قد انتهينا من شرب فنجان القهوة الثاني حين قال لي د.ت للمرة الرابعة أو ربما الخامسة:

- يدهشني الانفعال الذي آثاره فيك ذلك. إنه أمر غريب حقاً...

حاولت أن أصرخ: «حقاً؟ ألأنك تصف بالتفاهة ما رويته لي منذ قليل؟ أهذا إذن ما تظنه أيها الحشرة التي تنقل الألماس دون أن تدري بذلك؟ يا له من عجز فظيع!».

في الحقيقة، لم يكن كل هذا سوى ظل صيحاتي. كانت نصال حقدي عليه قد صدئت منذ زمن طويل، وبدلاً من تلك الصرخات كنت أرغب بجموح، بل أتحرق شوقا لأن أزعق بكل الاكتشاف الذي أقاسي منه. فالرحالة الكبير يقدم لألبانية حضوره الأخير قبل

رحيله. لأن لاسغيش قام بما بشّر به في أشعاره منذ سنوات: عاش من جديد. بل ودعانا للابتهاج معه.

فجأة، كطعنة سكين، دهمني ظل شك قطع عليّ نشوتي. فقلت له:

- أجل، يمكن القول إنك أدهشتني كما لم أدهش من قبل. أود فقط أن أسألك إن كنت متأكداً مما قلته...

أجاب :

- طبعاً.

- قد يكون ذلك مجرد شائعة وثرثرة عادية؟.

شدهني الذهول الذي قرأته في عينيه. استبدت بي رغبة بالصياح : «اسمع، لك الحق في إزعاج كل الناس، والذهاب إلى حد هدم المنازل بالسأم الذي تبثه، لكن ليس لك الحق، لا، ليس لك الحق في...»

- اسمع قلت له - وأنا أمسك يده - ألا تتذكر اسم تلك المرأة؟.

غمز بعينيه.

- اسمها؟ حسن، أظن أن . ..أجل ، على ما أذكر، اعتقد إنها تدعى *آنا غ.*

- رددت *آنا غ.*؟.

قلت في نفسي مرة أخرى *أنا غ*. كيف اتفق وبدا كل شيء في هذا الأسطورة منظماً كما على ورقة نوطة موسيقية، ابتداء من اسم وكنية الجنية؟.

راح يراقب قدحه متبسماً، وقد اعترته هو نفسه الدهشة الآن، بل الحزن لأن القدر تأخر كثيراً في مكافأته.

قبل بضع سنوات خلت، بينما كان الناس يفرون من السأم الذي ينشره، لا بد انه حلم بلحظة الثأر هذه: للحظة، كدرتني فكرة الانتقام هذه. لم أكن أعرف الشكل الذي توشك أن تتجسد به، لكني تبينت حالاً أن الأسلوب الوحيد لحماية نفسي منها هو الرحيل والهرب بأقصى سرعة. أن أفرّ إلى أي مكان، مثلما يفعل رفاقه في الكلية، وكالسكارى الذين اكتشفوا فيه رفيقاً لجلسات سكرهم، وكأبناء عمه الساخطين، وأصدقائه المخدوعين مثل ممارسي العادة السرية القليلي الخبرة على طرف واد...

كان علي أن أفلت من د.ت بأقصر وقت ممكن. وبهذه الطريقة أمنعه من توجيه الضربة القاضية. دون أن أسمع شيئاً منه مرة أخرى.

أجل، كان علي أن أنطلق دون أن أكمل أسئلتي. وأن أغادر وأذهب مباشرة إلى هناك. . إلى مدينة الاصطياف الصغيرة. .حيث...

فتح فاه ليقول شيئاً، وربما لينهي جملة تركها ذهنياً غير مكتملة. لكني صرخت بأعلى صوتي: « لا!» ونهضت.

كانت حركتي مباغتة إلى درجة أن قدح القهوة البارد الذي لم أنته من شربه قد انقلب.

شاهدته من الطريق يتابعني بعينيه وهو مخبول، بعد أن بقي وحيداً كعادته. لم يكن لدي متسع من الوقت لأشعر بأدنى أسف. فقد استحوذت عليّ هذه الفكرة: أن أنطلق بأقصى سرعة. أن اندفع مباشرة إلى هناك، حيث حدثت المعجزة . الافتتاح...

5

كانت الطريق المؤدية إلى بوغرادك طويلة ومنهكة. ومن حين لآخر تتوقف حافلة الركاب في تلك القرى التي تبدو هامدة من الحرارة

على الأرصفة، أمام المقهى أو محل الحلاقة حيث تحتل الواجهات الزجاجية كلمات «عمل،تربية، يقظة»، يتوقف بعض المارة ليتابعوا بنظرة متعبة بولمان العاصمة.

بعد ذلك، أصبحت الحواجز أكثر عدداً، لكزني المسافر الجالس بجانبي بخفة مشيراً بحركة من ذقنه إلى شرطيين يقتربان. قلت:

– آه، تفتيش أيضاً!.

التفتّ نحوه كي أبلغه اشمئزازي المبهم من هذا التفتيش المتكرر في عز الحر لكني، ولدهشتي الشديدة،

رأيت عينيه كأنما تغشّاهما الانخطاف والافتتان. قرّب رأسه من كتفي واستند ألي بكل جسده تقريباً وهمس:

– يبدوا أن القائد، كدأبه كل عام، ذهب ليرتاح في بوغرادك لبعض الوقت.

– آه، هذا هو إذن سبب كل هذه . . .

أومأ برأسه «أجل» وهو مزهو لمشاطرتي سره.

استطرد بنبرة هادئة:

– ما أسعد أولئك الذين يستقبلونه بينهم في نهاية كل صيف!.

اكتفيت بالإجابة: «طبعا». ولحسن الحظ، كان أحد الشرطيين قد صعد لتوه إلى الحافلة وراح يطلب دفاتر الهوية الشخصية للمسافرين.

بعد أن انتهى التفتيش، عاودت المركبة الانطلاق وتظاهرت بالنوم حتى يكف جاري عن إزعاجي بتعليقاته. كانت الفكرة الوحيدة التي استولت على ذهني هي أنهما موجودان الآن في المكان نفسه: هو، الغائب الكبير، المنسي تقريباً، والذي بات ضرباً من الشبح، والآخر، الكلي الوجود، بصوره التي لا تحصى وأقواله المنشورة في كل مكان،

المصنوعة من حبر ، من عشب ،من حصى، أو من أجساد بشرية في الملاعب خلال الاحتفالات الرياضية.

قال جاري و تعبير الافتتان نفسه لم يزل يتضح من قسماته:

– تفتيش جديد؟!.

ودون أن أفتح عيني تماماً، دسست يدي في جيبي لأخرج منها هويتي .

أثناء ذلك، كان هو نفسه قد أخرج دفتره و فتحه بخفة على الصفحة التي أدرجت فيها صورته و حالته المدنية، كي يسهل مهمة الشرطي. لكن هذه البادرة المتحمسة بدت مبالغة للشرطي و أوحت له بشيء من الحذر. حيث أنه، وبعد أن انتزعه من يدي جاري، أطبقه، و أعاد فتحه بنفسه، ليؤكد سلطته، و هو يبلل سبابته بلعابه كما يفعل العديد من رجال الشرطة حين يراجعون دفتراً.

قلّب الشرطي الصفحات واحدة تلو الأخرى و هو يلحظ بطرف عينه تعابير المسافر الذي أخذ يفقد هدوءه بالتدريج. حيث ارتسم على وجهه حزن مشوب بالدهشة، ثم بوادر ضيق مصحوب بابتسامة تلتمس

النجدة من الآخرين «ألم يجد إذن أحداً غيري يحنق عليه؟» كل هذه التعابير شكلت مسرحية صغيرة من أكثر المسرحيات التي يمكن مشاهدتها عبثاً.

انتهى التفتيش و انطلقت الحافلة من جديد. في الخارج، خلف الزجاج المغبر، لمحت عين الشرطي الذي ما يزال يتفحص وجه رفيقي في السفر بهيئة متشككة و مرارة حمقاء.

للحظة، أخذت أضحك في سري و بعد أن تمالكت نفسي، لمتها. مضت نصف ساعة استأثرت بي خلالها هذه الحماقات بدلاً من أن أنتقل بفكري إلى مواضيع أجدى نفعاً. كان يمكنني أن أفكر مثلاً بالطريقة التي كانت *أنا.غ* تقطع فيها هذه المسافة نفسها من حين لآخر، و بالحركات التي تفتح فيها حقيبتها الصغيرة ذات المرآة أثناء التفتيش لتخرج منها دفتر الهوية، ثم كيف تطبقه أصابعها ذات الأظافر الأنيقة ببرود كبرود الموت الذي يقترب من... طلاء الأظافر... ما لون طلاء أظافرها؟. ما المهم بتلك الحركات التي هي وقف على النساء اللواتي يعشن لتوهن مغامرة..؟.

كانت الطريق التي تشد عليها مهاميز جانبيها الصخريين كالكماشة، توحي بالكآبة. و محرك السيارة

يئن بألم متزايد عند كل منعطف. وتغدو رائحة البنزين أقل احتمالاً. إنه بلا ريب المكان الذي تفلح فيه هذه الرائحة بالحلول نهائياً محل عطر *آنا* غ. هذا العطر المنتقى بعناية، و ربما المستعار من إحدى السيدات المسنات و الذي قد يكون عطر قصة حب.

تتابعت الهضاب الكثيرة الحصى، و بين اثنتين منها بالضبط، حدث التفتيش التالي. كان رجال الشرطة في هذه المرة مصحوبين بموظف مدني، و هذه دلالة أكيدة على أن الإجراء سيغدو أكثر صرامة ابتداء من هذه اللحظة.

كان الصمت الثقيل الذي صعق الحافلة يشهد أن المسافرين قد أدركوا ذلك هم أيضاً. مد جاري دفتره بوجل، إلا أن كل انتباه الشرطة تركز علي هذه المرة. التمعت عينا المدني ببريق مرتاب، كعيني رجل حذروه مسبقاً من أمر طارئ.

– ما سبب ذهابك إلى بوغرادك ؟.

كان هذا السؤال التمهيدي مربكاً إلى درجة أني اضطربت. فهو بلا شك السؤال الوحيد الذي تمنيت لو أعفى منه. كنت أفضل أن أقدم تفسيرات لمواضيع أعقد

بكثير، بدلاً من الإجابة على هذا السؤال المفرط البساطة، في حين أن أي مسافر آخر كان سيجيب عليه بلا شك دون أية صعوبة: إني ذاهب لقضاء العطلة الصيفية، أو إلى ابنتي التي تعمل مدرسة، أو لحضور عرس، أو حتى مأتم..

قال المدني بابتسامة ساخرة:

- أنت عاجز عن إخبارنا بهدف رحلتك؟.

وجدتني أهز كتفي بشكل لا إرادي كأنما لأقول:

- لا أدري.

جحظت عينا جاري، و هو يتلهف بلا شك ليشرح هو نفسه سبب انتقاله الخاص. لكن دماغي المخدر لم يسعفني بأي تبرير لهذا الانتقال. و لا بأوهى ذريعة..

التفت المسافرون الذين يحيطون بنا. أيعقل أن يجهل مسافر سبب سفره؟ كيف لا يثير هذا الاشتباه!

احتدت عينا الرجل المدني. و فيما أنا مضطرب كغريق استسلم مكشوفاً تحت سطح الماء، استشعرت قدوم سؤاله الثاني الأكثر رعباً:

- هل تعرف *آنا .غ*؟.

هـذا مـا يريـد الوصـول إليـه إذن! و كبكـرة تكـر بسـرعة، مضى دمـاغي مـن البـلادة الكلية إلـى الـدوران المـدوخ. لقـد حـزرت! فهـذا الشـخص الحقـير و المسـخ البائس د. ت الذي كنا نسخر منه جميعاً، هـو في الواقـع مخبر و مستفز خطير. فقد خدعنا طيلة سنوات، سـخر منا، و أوقعنا جميعاً في فخه. تسـاءلت: «يا إلهـي، كيف تسنى له أن يشي بي بهذه السرعة؟»

مـذ ذاك غـدت كـل الأسـئلة الأخـرى التـي يوشـك الرجل المدني أن يطرحها على قدر كبير من الوضـوح في ذهنـي: «هـل تتصـور أننـا لـم نسـجل كـل غدواتـك و روحـاتك؟ و تنقـلات *أنا. غ* السـرية. لا سـيما في العطـل الصيفية، حين يستقر القائد في بوغرادك؟ و تلك القصة مع لاسغيش بورادسي، أتظن أننا انخدعنا وصدقناها؟».

حاولت أن أقول له: «إذن أنتم أيضاً مـن اختلـق تلـك القصـة؟ كمـا اختلـق بقيـة القصـص، التمـردات خـلال اجتماعـات الكتّـاب، و تخريـب آبـار النفـط، و.» لكنـه قاطعني فجأة:

- لا،لا، بل أنتم الذين دبرتم ذلك!.

بقينـا برهـة دون أن نـدري أيـن وصلنـا: نحـن.. أنتم..نحن ..أنتم..

تبـدى الآن بوضـوح فـائق الشـك بـأن *آنـا*. غ كـانت تغذي النوايا الشـريرة حيـال القـائد الأعلـى. وللحظـة، تخيلت طلاء أظافرها تشوبه مسحة خفيفة من الدماء..

– و أنـت أتفتتـك فكـرة ذهابهـا الآن إلـى مـنزل الشاعر؟ لأن هذه غايتك بالضبط: أن تضـع الشـعراء في منافسة مع قادة الحزب المرموقين!.

حسب رأيه، بدلاً من أن أكون في مكان الاصطياف هذا، كـي أبدي إعجابي مـن بعيـد بالقـائد الأعلـى، علـى غـرار مئـات النـاس المسـتعدين لقضـاء ليـال مـن الأرق ليحظـوا بذلـك، استسلمت مـأخوذاً بهـوى هـذا الشـاعر المخبول حتى إني اعتبرت هذه الحادثة بشرى إلهية!.

تشوش كل شيء في رأسي. ولم أعد أفلح في ضبط منطقـة بشـكل جيـد. فبرأيـه، إذا جـاءت *آنـا*. غ إلـى بوغرادك، فهذا ليس من أجل الشـاعر طبعـاً، بـل لأجـل القـائد الأعلـى. والـذي بقـي غـير واضـح بالمقـابل، هـو معرفة هل جاءت إليه لتحبه أم لتقتله؟.

خطر لي أن هذا الشرطي بلباسه المدني يهذي بشدة. ولم يعد أمامي سوى انتظار اللحظة التي سيقول لي فيها إنها جاءت من أجل الأمرين معاً!.

لمت نفسي، لأنه في الحقيقة حين تذهب امرأة إلى منزل رجل، فذلك للغايتين معاً في أغلب الاحيان. لكني ما كنت لأصدق أبداً. أن الذهن البليد للشرطي قادر على محاكمة مثل هذه الأفكار الدقيقة.

ولدهشتي، بدا حضوره يفقد شيئاً من كثافته السابقة، تلك التي ظهرت حين صعد الحافلة.

وكما لو أنه هو نفسه شعر بذلك، نظر إليّ بهيئة مختلفة بعض الشيء. لاح في عينيه بعض الاضطراب وتقريباً رجاء. بدتا تقولان لي: تابع أيضاً لبضع لحظات في إظهار احترامك لي، وبعبارة أخرى: لتبق خائفاً مني. على الأقل إلى حين خروجنا من هذا الخندق التائه...

أوشكت أن أسأله فيما إذا كان يريد أن يلمح بذلك إلى الأسلوب الذي ذممت به وقود الدولة، وكذلك التزامات خبراء النفط بتجاوز أهداف الخطة إكراماً للمؤتمر الثامن للحزب.. مؤكد أنك حرصت على تدوين كل هذا في تقريرك. وعلى أن تكتب أنه «في مكان يقع

بين الكيلو متر 137 و 141، ادعى (أو ادعيت) أن رائحة البنزين حلت محل رائحة عطر *آنا*. غ وذلك دون إخفاء إيثاره الواضح للرائحة الأخيرة...».

ولجت بعد ذلك في حالة خمول كأنني نسيت فيها للحظة الشرطي لأطير إلى هذه المدينة في الشمال حيث لا بد أن *آنا*. غ انطلقت منها بالسيارة قاصدة بوغرادك. تخيلتها تتعطر أمام مرآة قديمة ذات إطار برونزي، بجانب أيقونة باردة لعقيدة أخرى.

بدا أن انفصالي هذا قد تغلب بشكل قطعي على رجل الشرطة السرية، وتكفلت رجة قوية من الحافلة بتفتيته وإيقاظي من غفوتي.

... ما زالت الطريق الرتيبة نفسها: مغبرة، وشاخصات المسافة نادرة، معظمها محني بتأثير صدمة ما. انتزعت إحدى تلك اللوحات ابتسامة مني، فبعد أن انقلعت من مكانها، أعادت يد عابثة نصبها، إنما بشكل معاكس: أصبح الرقم 147 المنقلب، الذي لا يثير السرور لإطالته الطريق خمسة أضعاف، مشيراً إلى الاتجاه المخالف، خالطاً الاتجاهات والدروب.

بعد ذلك بمسافة قصيرة، كانت تتراصف عند مدخل إحدى القرى لافتات جديدة، وقد غطت أحرف ملونة عدداً كبيراً منها؛ وبين الدعوات إلى الوفاء للدولة واليقظة والخلق النزيه كانت تصور أيضاً التزام العمال بالسهر على المؤتمر الثامن، و ... و... وعود بالحب الأبدي *لآنا.غ*!!.

هززت رأسي لئلا أغفو ثانية. كنت قد سمعت كلاماً بأن هذا يمكن له أيضاً أن ينطوي على خطر فقد تكسر عنق المرء فرملة مفاجئة.

6

هكذا وصلنا إلى بوغرادك وقت العصر. وكالعادة بعد سفر طويل، كانت المدينة تبدو هامدة. ورغم الحر المبكر، فإن فصل الصيف لم يكن قد بدأ فعلا بعد.

بعد أن نزلت في الفندق، بدأت أتسكع في الشارع الكبير. تحت أشعة الشمس المحرقة، بدت محلات البضاعة أكثر انفراغاً من ذي قبل. وعلى الواجهات الزجاجية، كما في كل مكان آخر، ثمة شعارات أيضاً، وحتى أكثر عدداً مما كانت عليه قبل عامين، عندما جئت لأمضي عطلتي الصيفية. بنطولات للرجال. متجر خرداوات.تدريب. يقظة. منظف شعر.

عند مدخل مقر هيئة الحزب، كان شرطيان يثرثران ضاحكين بلا مبالاة.

قيض على مدينة ريفية صغيرة. نادي الصيادين، حلاق شعر. مركز التثقيف في الحي. وليس ثمة إشارة خاصة على المعجزة. إشارة إلى أن *آنا*. غ، في إحدى أمسيات نيسان.. إحدى أمسيات نيسان.

راودني الشك في أن تلك القصة لم تكن سوى إحدى تلك الخرافات التي يختلقها الناس غالباً في المدن الصغيرة، لكن بأسلوب أشد مكراً هذه المرة. لعل *د. ت* كان صادقاً. ومع ذلك، لزمني بعض الوقت لأمحو الانطباع السيء الذي كان يتركه في دوماً. لكن منبع أكثر الشائعات المبهجة، هو بشكل عام بعيد كمنبع الأنهار الكبيرة. لم أجد أية صعوبة في تخيل مصدرها. إنها من إقليم في غاية الصفاء، قرب البحيرات الألبانية، كتلك الأقاليم التي تولد فيها على سبيل المثال الجروف الصخرية، غير أن منطقاً واضحاً كان يبعد مثل هذا الافتراض. فمن القمم المرتفعة تنحدر فيضانات من طبيعة مختلفة تماماً. ظاهرياً، لا يمكن لهذه القصة أن تولد إلا في هذا المكان نفسه، في قلب السأم الذي يعذب هذه الناحية الصغيرة، بمكاتبها ذات الجدران العارية، المسكونة بنساء شعرهن قصير واللاتي كن مع رفعهن لسماعات الهواتف بحركة جافة، يلفظن هذه الكلمات بنبرة لم تزل قاسية: «أعلن الرفيق غافير أن لديه اجتماعاً مستعجلاً» بينما لم تصل قط أية رسالة حب

إلـى مكتـب الـبريد فـالكل يعـرف كـم هــي مراقبـة كـل المراسـلات.

وأنـا أراقـب هـذه المجموعـة مـن الموظفـين، تصـورت إلى أي مدى بدت *آنا*. غ غريبة ومفضوحة هنا.

لـم أتوصـل في الوقـت الحـالي إلـى تحديـد إن كـانت هـذه البلـدة المنسـية هـي التـي أفرزتهـا كدمعـة في بكائهـا علـى نفسـها، أم أن لاسـغيش بورادسـي قـد وهـب *آنا*. غ لهذه البلدة بعد عجزه عن أن يقدم لها معبداً، أو حـوض مـاء، علـى غـرار مـا يفعـل المهـاجرون الألبـان الأغنيـاء،أو حتـى أن يغير بذلـك شـكلها المعمـاري. في الواقــع، سـواء أكـان مـا دار في خلـده هبـة أم قصاصـاً، فهـذا مـا لـيس بمقدور أحد أن يعرفه.

7

كنت أذكر الشارع الذي يسكنه الشاعر، وأعرف أيضاً منزله الذي يسميه «صرحا» كما يسميه كل من يقطن هنا، بسبب مظهره الغريب. ومع ذلك فإني أجهل ما الذي منعني من التوجه نحو هذا البيت. إذ بدلاً من أن أمضي في اتجاهه، قادتني ساقاي عفوياً نحو شاطئ البحيرة. اعتقدت عندئذ أني فهمت ما كان منه. وعرفت ما بقي عليّ فعله. فقبل دخول ذلك المنزل كان عليّ أطهر نفسي قرب هذه البحيرة التي كرس لها بعضاً من أجمل أشعاره، وأن أرى ثانية أشجار حور الفندق القديم، وساحة الدير العائد للقرون الوسطى ذات البلاط المتواري بين الطحالب، والدير نفسه الذي تحول منذ زمن طويل إلى مخزن جبن...

تنزهت على هذا النحو ما يقرب الساعتين. كان سطح الماء مكسواً بالتماعات زمردية غامضة، وينبعث

من القاع ما يشبه أنوار مجوهرات مغمورة قد تطفو ذات يوم. وفوق برج الدير الذي انهار نصفه تقريباً، بدا المكان الذي نزعوا منه الجرس كأنه لم يزل متألماً. استولى عليّ هدوء مخيم وحزين، وشعرت بأنني مستعد الآن لزيارة الشاعر.

كنت آجتاز الساحة الصغيرة أمام مقر لجنة الحزب حين سمعت صوتاً يناديني من بعيد. قبل بضع دقائق، كانت بي رغبة للقاء شخص أعرفه، أما في هذه اللحظة بالذات فلم أعد أريد حقاً صحبة أحد.

إنه مخرج مسرح العرائس الذي تعرفت عليه منذ عامين، خلال عطلتي الصيفية.

بعد أولى عبارات التحية المتعاقبة، ساد صمت مريك. ولكنني سألت للمرة الثانية بالنبرة نفسها التي لم يكن ليسعني تحملها من الآخرين.

- إذن ما الجديد عندك؟.

ابتسم قائلاً:

- ما الجديد الذي يمكن أن يوجد في هذا الريف؟ لا شيء يحدث في هذه المقاطعة. تأتينا الأخبار من مكان آخر .من عندكم.

أدهشه بلا شك أن أنتظر منه أمراً – وهو الأمر الذي كان سيبوح لي به فيما بعد – بينما أنا، عاودتني الريبة، ولكنها هذه المرة فظة ولا إنسانية. وعلى ما يبدو، لم تكن قصة حب الشاعر إلا مجرد اختلاق، ولا وجود لـ *آنا*. غ ولا لمرآة مشدوفة، ولا لعطر من زمن آخر. لم يكن يوجد هنا سوى الحرارة، ورائحة البنزين التي لم تكن لتغادر الملابس قبل عدة أيام. وطبعاً، ثمة أيضاً وعود بالسهر على المؤتمر.

– تنتظر أن أقول لك ما الجديد الذي يحدث في ناحيتنا، بينما يدهشني أنك أنت الذي جئت بالضبط من المكان الذي تجري فيه الأمور، تسألني عن الأخبار، نحن قاطنو هذه الوهدة التائهة! ما عساه يكون لدينا لنقصه عليك، نحن البائسون؟ الرتابة والترهات.. حسن، منذ فترة وجيزة، أو شك لاسغيش أن يتحفنا بقصة حبه الجميلة...

– آه!.

حرك يده كأنه يبعد حشرة مزعجة، أو كما يفعل غالباً، كي يدل على أمر قليل الأهمية يتوافق مع ما قيل للتو.

و أنا أتجاهل هذه الحركة المستخفة التي كانت ستحثني على الاصطدام به في أية مناسبة أخرى «كيف تتجرأ أيها المسخ على الكلام عن مآثر وحركات الشاعر

بتهورا»، شعرت أن الحماسة تستخفني. فقررت أن أخفف من عبء الغضب. وتمالكت نفس لئلا أمسك بخناقه. وكان هو يواصل هز رأسه ويضحك هازئاً كأبله.

- إذن أنت أيضاً، سمعت كلاماً عن ذلك؟ لقد وصلكم الخبر...

أجبت:

- لا أرى ما يخجل، وحتى يمكنني القول إنه على العكس..

حدق يَّ بإمعان.

- إنه أيضا رأي جورج، رسامنا، لكني عارضته. إننا متخاصمان.

استطردت:

- ليس في هذا ما يخجل البتة. بالعكس، هذا شرف.. شرف لنا جميعاً.. أجل أعني.. وحتى شرف كبير جداً!.

تعجب الآخر:

- رباه! قد يحسب المرء أنه يسمع جورج!.

- ولأن مثل هذه الأمور تحدث عندكم أيضاً، فهذا يعني إنكم لستم البتة منطقة ريفية نائية، إنكم المركز، أتفهم؟ أنتم في قلب الأحداث...!.

أصغى إليّ وقد تضاعفت دهشته لأني أنا أيضاً أحذو حذو جورج واتبنى هذا الرأي.

كان يستحيل عليّ أن أقول له جوهر فكرتي ولماذا كنت أرى تصرف لاسغيش تصرفاً إعجازياً بالضبط لذلك اخترت القبول بالمنطق الذي قدمه الرسام. كنت أعرف تقريباً موضوعات حديث الفنانين الساخطين في المقاهي الريفية شبه الخالية. فهم وقد أثقل عليهم ازدراء واستخفاف موظفي المقاطعة الحكوميين الذين لم يكونوا يتذكرونهم إلا بمناسبة الأعياد، حين ينبغي تنظيم حفلة موسيقية أو تزيين المدينة. وبعد أن يتنحنحوا أمام أقداح الكونياك، كانوا يستعيدون شجاعتهم: متذكرين أسلافهم العظام. مجدهم والشرف الذي كان يمنحه لهم أمراؤهم، والنساء اللواتي حظوا بهن. ثم تأتي حتماً المسلّمات الركيكة دفعة واحدة في نهاية السهرات العابقة بالدخان حول الظمأ للحب الذي يعاني منه الفنان، وحول مقدرة هذاالشعورعلىتجديد الشباب، لا سيما في الشيخوخة. ثم يأتي النقاش الملتهب من جديد بهذا أوذاك من الاقتراحات المبتذلة، والمكرورة من قبل كل بلهاء الأرض، ومن تلك الاقتراحات التي ما أن يسمعها المرء حتى تثار به الرغبة إما بالصراخ أو إطلاق ساقيه

للريح: «أخبروني، هل بمقدور أي منكم أن يذكر لي اسم وزير الثقافة في عصر شكسبير؟».

لم أكن افترض أن جورج غاص في عمق الأمور وفي أحسن الأحوال ربما يكون قد شعر بغموض ما كنت أعانيه، غير أنه وهو يتكلم بحماس عن القدرة على تجديد الفن، وعن غوته والتيتيان الخ، حكم بشيء من الجرأة على كل هذه الحياة الرتيبة الرمادية.

قال لي مخرج المسرح:

- سأعرفك بجورج، سيعجبك بالتأكيد.

أجبت:

- ما يهمني الآن هو أمر آخر.

احتجنا بضع لحظات كي يفهم هو - وأنا معه - ما أردت أن أشير إليه بعبارة أمر آخر: قصة حب الشاعر، أو ببساطة أكثر، الشابة *آنا*. غ التي كانت بطلتها.

في الحقيقة، كان كلاهما المقصودين في آن معاً ولكن ثمة موضوعاً آخر كنت أبحث عنه علاوة عليهما ويرتبط بكليهما على السواء.

روى لي القصة. وبعد أن صرف النظر عن كلمة حماقة، استبدلها بأخرى أكثر تنقيحاً «فضيحة»، لكنه وهو يراني مشمئزاً من جديد، تركها ليرتد إلى كلمة غير واضحة، كلمة «قصة». هكذا إذاً، كانت القصة قد بدأت في شهر نيسان.

في ذلك الشهر، وصلت *آنا.غ* إلى بوغرادك قادمة من مدينة كاثوليكية في الشمال. سبق أن ارتادت منزل لاسغيش، ولكنها في شهر نيسان، أخذت تقضي فيه ساعات طويلة، بما في ذلك أوقات المساء.

بدت الأقاويل الأولى حول العلاقة بينهما غير قابلة للتصديق في أول الأمر بسبب السن المتقدم للشاعر، وانتهت لأن تجد أساساً تقوم عليه في شهرة الشاعر الماضية. بلا شك كانت الأمور ستتواصل على هذا النحو ،حقيقية بالنسبة للبعض، ومحطّ إنكار للبعض الآخر، وحسب رأي الرسام جورج، فإن القصة ستتواصل شاطرة إلى مجموعتين الناس الذين لم يقسمهم شيء منذ أن تتالت الخطط الخمسية على هذا النحو، وستستمر حتى موت الشاعر، وعلى نحو مؤكد بالتالي بعد اختفائه أيضاً، لو لم يظهر فجأة دليل يؤكد كل شيء. وهذا الدليل يتعذر دحضه ما دامت يد الشاعر

نفسها قد خطته. إنه عبارة عن دفتر في حوالي الخمسين صفحة معنون بـ «زيارات الآنسة أنا. غ إلى صرحي» توجد فيه القصة مروية من الألف إلى الياء: اللقاءات، الأحاديث، اللحظات الحميمة، ومشاريع الزواج.

- لكن كيف ظهر كل ذلك إلى العلن؟.

قال محدثي:

- حسن، يوجد.. كيف أقول لك ذلك.. ثمة أمر ما فيه شيء من الصحة في هذا الشأن. لقد نجح جاران جديدان يذهبان مرة في الأسبوع لترتيب منزله في سرقته منه سراً.

- وهو؟.

- هو؟ لأنه شارد كعادته، وغارق في أفكاره، لم يلحظ شيئاً. بل ربما نسي أنه دون هذه الملاحظات على الورق...

- لا بد أن هذا الدفتر موجود الآن في مكان ما خارج منزله؟

وافق بهزة من رأسه. ودون أن تبارحني عيناه، أضاف:

– يمكنني أن أزودك به، لكن شرط ألا تبالغ في أهميته. أعني بذلك ألا تبدأ بالصراخ: يا لها من حقارة، يا لها من قذارة، أو أي شتيمة أخرى أيضاً..

– لا أنوي فعل ذلك البتة.

– قد تفعل ذلك، نظراً للإعجاب الذي تكنه له..

– أعدك.

وثبت ابتسامة رضى انداحت على وجهه سريعاً. وقال:

– سترى أننا نحن الريفيين أيضاً، عندما نقطع وعداً.. بعد ساعة، سيكون الدفتر عندك.

8

وفعلاً بعد ساعة كان الدفتر في حوزتي. رقيق، وهش مثل كل الأشياء الثمينة، ومغطى بخطه الرفيع الذي كنت أميزه جيداً بسبب النسخ الكثيرة المصورة عن الطبعات الفاخرة القديمة للشاعر التي كتبت بخطه. «زيارات الآنسة *لنا*. غ إلى صرحي»: الآن، وأنا أقرأ وأعيد قراءة هذا العنوان، أدركت أني كنت قد بالغت بالشك بالأمر. وأني أخطأت. كانت القصة صحيحة، كما كان كل شيء يخصه. صحيحة بقدر سحرها..

كانوا قد نقبوا بحثاً عن النفط طوال ذلك العام دون جدوى، وبعد أن أرهقتهم الأعباء المادية بحث الناس عن مخرج لهمومهم، فبنوا آمالاً سابقة لأوانها على اكتشاف احتياطي جديد للكروم، ومنحة القروض من

ألمانيا الاتحادية، واستعادة ذهبنا الذي كانت تحتجزه إنكلترا منذ الحرب العالمية الثانية. لم يحدث شيء من ذلك وفي الواقع لقد كان هناك كنزاً. غير أن أحداً لم يكن يعلم ذلك. هذا ما كنت أفكر فيه ذلك المساء، وأنا أنزل لأتعشى في صالة المطعم الكئيبة. كان فريق كرة الطائرة الذي وصل من أجل بطولة وطنية ما يأكل بصخب، وأبعد منه ، كانت مجموعة رجال تنتظرالنادل بهيئة عابسة، وجميعهم يرتدون ملابس على نمط موظفي وزارة الداخلية. كنت أحتفظ بعبارات وحتى مقاطع كاملة منقوشة في ذهني من الرائعة التي قرأتها للتو.

9

بعد العشاء صعدت من جديد إلى حجرتي. بقيت برهة ممدداً على السرير، ثم خرجت إلى الشرفة. كانت البحيرة تبدو معتمة ومخيفة. على هذا النحو كنت أتذكرها دوماً في الليالي غير المقمرة. كانت تبدو في هذا السواد الغامض وكإنها تعد زرقتها لليوم التالي.

يزعم الناس أن اليونسكو قد وضعت مشروعاً يهدف إلى حمايتها. لكن لم يخطر ببال أي اتحاد أوروبي حماية لاسغيش بورادسي.

ارتعشت وعدت إلى حجرتي، لكن الاضطراب الذي كانت قد غمرتني به الرؤية القاتمة لهذا الماء الممتد منعني من العودة إلى رشدي تماماً. اعتقدت أني تذكرت البدلة والقبعة السوداويين اللتين أعفتاني من قلق مماثل في آخر مرة شاهدته فيها. لعله تحت هذه القبعة

بالضبط نظم أجمل أشعاره؟ وبالتأكيد تأملاته حول «آنا. غ».

تخيلتها من جديد، هي، في الحافلة الحزينة على الطريق لكني الآن، بدأت أجد صعوبة كبيرة في التمييز بين ما حدث حقيقة، وما تخيلته. فقد امتزجا بما كانت تستعيده ذاكرتي من مقتطفات نبأ نشر في موسكو منذ فترة وجيزة ويدور حول شابة سوفيتية وقعت في غرام الكسندربلوك بعد موته. قلت له في سري: «أنت أيضاً، ستنال كل شيء بعد موتك». أجل، بالتأكيد، الجميع سيتذكره فيما بعد، تماماً عندما لن يعود يعرف شيئاً عنهم، إلا بقدر ما قد تعرف البحيرة بالأشعار التي أهداها لها.

قلت في نفسي- أيضاً- مخاطباً *آنا. غ* : «لقد أسرعت أيها اللقلق القادم من الشمال لكي تلقاه وهو لم يزل على قيد الحياة. فيما بعد، عندما سنموت، سيغدو كل شيء أسهل بلا شك. أما أنت وبحماسة غريبة، فقد سارعت إليه في حياته...».

10

قبل أن اطرق الباب، تأملت لبرهة مديدة «الصرح» محاولاً أن أتخيل كيف كانت تدخل *آنا*. غ إليه. ترددها أمام الباب، جفناها المسبلان كما ينبغي أن تحافظ عليهما النساء وهن يدلفن إلى مكان لا يفترض بهن أن يقترين منه، دفع المصراع، والصعود الرشيق للدرجات الخشبية.. وكما لو أنني أحاذر ألا أدنس الظل الذي تركته على هذا الدرج، ارتقيته بخفة، وأنا أتخيل أن خطاها ربما قرقعت أقل بهذه الطريقة.

عرفني لاسغيش في الحال. كان يبدي ابتسامة العام الفائت نفسها، وربما بقدر أكبر من التحفظ: على الأقل، كان هذا هو الإحساس الذي راودني، لأنني وقد امتثلت لكليشات مقاهي الفنانين التي كنت سجينها رغماً عني، كنت أنتظر منه أن يطرد عن وجهه فتوة الحب، غير أنه لم يذعن في شيء لهذا النوع من الكليشات، كما بالنسبة

لبقية الأمور. فحالته كرجل عاشق، لو سعى المرء بحق لكشف علاماتها، لوجد أنها تتجلى- على الأخص- في برود ملامحه. إنه برود مهيب، بوجنتين من الرخام الصقيل، لكنه متشقق، وعينين نجلاويين، وخلف هاتين الكوتين، كانت جمجمته تبدو كأنها تحبس نوراً مبهراً حيث تلتمع منها بين الحين والآخر بروق متوعدة.

قال لي دون أن يتحرك عن أريكته الصغيرة:

- شكراً لزيارتك.

شاهدت خلف كتفيه، عبر النافذة، أغصان أشجار التفاح. فحرصت على ألا أقول شيئاً طائشاً، لأني كنت أشعر بنفسي كأني في عالم كريستالي قد تحطم فيه أية حركة غير متروية كل شيء. وكنت أخشى، ما هو أسوأ أيضاً، محادثة ما من هذا الطراز.

- هل أنت بخير؟.

قلت:

- لا اعرف كيف أشكرك لاستقبالي.

وأنا استخدم كل المواريات الممكنة لاعبر عن فرحنا باعتباره ما زال بيننا، كجوهرة قديمة. لم يكن يسيراً أبداً الانخراط بمحادثه معه: وخلافاً للمرة السابقة التي اضطررت فيها إلى أن أكون حذراً كلهب شمعة تخاطر بان تنطفيء بين

برهة وأخرى، ألفيت نفسي في حالة معاكسة: وجب علي أن أمنع صرامته الأولمبية المهيبة من أن تتراخى وتهن ببلاهة.

كيف كان بوسعي أن أقول له إنه بالرغم من الاقصاء المتواصل لكتاباته، وبالرغم من الأسف الذي شعر به الجميع لغيابه منذ ذلك الاجتماع البائس فإن روح الجميع كانت تتجه نحوه على نحو متزايد دوماً؟. ومن بين ثلاث أو أربع جمل تبدأ كلها بـ «بالرغم» كنت أجبر نفسي على اختيار أكثرها ملاءمة عندما بادر هو ، وكأنما قد حزر فكرتي ، ووضع حداً لعذابي:

- الشعراء هم الذين يصنعون الأمة .هذا معروف. أما هؤلاء الحكام - وأومأ بيده في اتجاه غامض، كأنما يشير إلى المكان الذي يوجد فيه الحكام الحاليون -كلما فعلوا شيئا، يتظاهرون بأنهم يتجاهلوننا، لكنهم لا يستطيعون -على الأقل- أن يمنعوا أنفسهم من الاحتفاظ بنا في الذهن: ما رأي لاسغيش بما فعلنا؟ وماذا سيكون رأي الشعراء به؟.

وافقته قائلاً:

- لا شيء أصدق من هذا.

هز رأسه مؤيداً وهو يتأمل يديه. ظلت ابتسامته الباردة بعد عجزه عن متابعة هذا الهز كأنها معلقة في الهواء. أضاف بصوت هادئ:

– يتظاهرون بإهمالنا، لكنهم لا يكفون عن التفكير بنا. بدءاً منه، قائدهم. على ذكره، ماذا حل به؟ أهو حي أم ميت؟.

عند هذه الكلمات، مكثت مذهولاً. فطرح مثل هذا السؤال بشأن القائد الأعلى، ذاك الذي تغطي صوره الجدران والمداخل والواجهات الزجاجية والمكتبات مرفقة بكلمة «يعيش! يعيش! يعيش!» فهذا أكثر مما ينبغي ليثر دهشتي. خاصة وأن هذا السؤال كان قد طرحه عليّ الشاعر المنسي بالتحديد، بينما كان الموجهون الرفيعو المستوى، بما فيهم بالتأكيد الموجه الأعلى بينهم، ميالين إلى السؤال عن هذا الشاعر بخبث وغيرة وجهل: «لكن ماذا حدث له الآن؟ هل ما يزال على قيد الحياة، أم مات؟».

كان الشاعر يكبر القائد بعشر سنوات، ولم يكن يبدو عليه أنه أقل طبيعية في طرحه هذا السؤال. فهو ليس البتة سؤالا دفع إليه الغيظ الذي سببه إهماله، إنما سؤال منبثق من رؤيته للعالم الذي يعيش فيه، حيث يحسب فيه الآن تبعاً لتقويم آخر، تقويم الخلود.

«BUD POLIEGTCHE S POETIM. SUDAR»

«أيها العظيم، لتكن رحيماً بالشاعر».

بيت الشعر هذا، الذي لم أعد أذكر اسم مؤلفه، انبجس فجأة في ذاكرتي، مصحوباً بنبرة من يطلق تحذيراً: خطأ!: إلا أن هذا النداء لم يكن موجهاً إلى محدثي بل إلى الآخر. كان قد أبدى قسوة تجاه الشاعر. وحتى أسوأ: لأنه لم يتجاسر على الإضرار به صراحة، فقد آذاه بدناءة، بعدوانية خسيسة كما هي حال الانتقامات التي يحث عليها الحسد عادة. أخذت أغصان أشجار التفاح تهتز برفق من خلف كتفيه. حين نويت أن أحاول استدراجه إلى حديث عن الحب، وهذا ليس صعباً جداً!. ولكن ما قاله قبل قليل جعلني أشعر أن اللحظة قد أختيرت بشكل سيء، ثم أنني خفت من أنه قد لا يقول أية كلمة عن شؤون القلب، مما سيجعلني أشك بأنه ربما نسي قصته مع *آنا.غ* ، وأنهى المغامرة. وإزاء هذا التصرف الجنوني المتكبر، لا شك أني كنت سأتهيأ للتذلل أمامه، ولمناشدته باسم الجميع ألا يدع قط مهمتي غير منجزة. ولقلت له: «أيها المعلم، وأيها الفارس الخالد، افعل ذلك لأجلنا جميعاً، لأجل سعادة عالمنا!» أجل، في أي يوم آخر، ربما كنت سأخاطبه بهذه العبارات.. إلا أنه حين طرح عليّ هذا السؤال الغريب، فإن كل شيء شحب إزائه في ناظري. وأحسست بحزن داخلي عميق لم يزل يضيء نظرته.

استطرد بعد برهة:

– في شعر هومير، هنالك مقطع، لا أدري إن كنت تذكره، تغضب فيه الشمس على زيوس، تحتد الشمس إذاً ضد الطاغية، فهل تعرف أي وعيد توجهه له؟ «سأنزل إلى الجحيم ولن أتوهج إلا من أجل الموتى!».

أخذ يبتسم بطريقة ما زالت باردة جداً. هذا هو وعيد الشمس المرعب للطاغية. قد تترك مكانها في السماء لتنزل إلى مرقد الأموات حيث لا يوجد بصيص نور، وحيث لا يحتاج أحد إليها. بإختصار، سينقلب كل شيء وبعبارة أخرى : لتأت نهاية العالم، وسفر الرؤيا!: ذلكم هو نوع الوعيد، وليس تذمرات صبية صغيرة لابد أن يتفوه بها فم الشاعر!.

عبر التصدعات القاسية التي شقها، استمرت نظرته المتجلدة مسمرة عليّ. مكثنا صامتين على هذا النحو لزمن مديد قبل أن يتابع:

–حسب ما قرأت عنك ، أخذت أنت أيضاً تنزل نحو الأموات..

تنهدت بارتياح، كأنني سمعته للتو يلفظ قرار العفو لصالحي.

11

كان العصر مكفهراً وفارغاً، ولعلني لهذا السبب نفسه لم أجد أي مشقة في ملئه بكل أنواع الانطباعات البصرية. فبعد أن تنزهت بين أشجار حور الفندق القديم، وفي ساحة الدير المخصص لغرض آخر، توقفت لحظة مديدة على الجرف الخالي الذي تحوم فوقه العصافير، إنها الوحيدة التي تسرع في هذه المدينة، مطلقة زقزقات قلقة. ثم أخذت أذرع الطرق بخطى وئيدة محاولاً أن أحزر من أي محل للعطور كانت *آنا*. غ تتسوق، عندما بدأت تتردد على منزله.

على عتبات منازلهم، كان الشيوخ الشبيهون بالأرومات القديمة التي ما زالت آثار صاعقة تظهر عليها، يتأملون البحيرة. إنهم أصدقاء شبابه الذين انتهوا بسبب قلة كلامهم إلى نسيان ما ينوف عن نصف اللغة وصاروا يلفظون كلمة فضيحة بـ «فديحة».

مشددين النبرة الصوتية على المقطع الأول، كما في اللهجة الألبانية القديمة. أتراهم قالوا: «أوه، يا إلهي، ما أشد ما أخجلنا لاسغيش!» أم اكتفوا بهذه الكلمة «فديحة» الشبيهه بدرع السلحفاة، ليعبّروا عن كل ما يفكرون به حيال اللقلق الشمالي الرشيق الذي دوّخ صاحبهم؟.

قادتني ساقاي مرة أخرى نحو الجرف، وشغلت ذهني لبرهة فكرة أن ثلاثتهم، المدينة الصغيرة، والبحيرة، والشاعر، كانوا يحملون الاسم نفسه إذا صح القول. وكأن النزاع الذي واجهه السكان منذ عشرات السنين حول موضوع معرفة هل هذه البحيرة هي التي منحت اسمها للمدينة أم العكس، كأن هذا النزاع لم يكف، بل جاء هذا الشاعر الشاب العائد من فيينا بعد أن أنهى دراسته ليقتسم هذا الاسم مع كليهما.

شارع الأول من أيار، ساحة النصر الاشتراكي، شارع كاجو- كارا فيلي، جادة أنور- خوجا.. فاجأني المساء بينما كنت منهمكاً في البحث عن شارع رئيس يناسب اسمه، يناسب اسم *آنا. غ* بالطبع.

على مسافة بعيدة، كانت المصابيح تلتمع في شطر المدينة الذي تنتصب فيه فيلات القائد الأعلى. أما صرح الشاعر، فكان يقع في الجهة المقابلة. وغالباً ما كانت الفيلات الأولى تستقبل موظفين رفيعي المستوى

وعسكريين ومحاربين قدماء شاركوا في نضال التحرر الوطني. والفنانين المشهورين المسنين، أما هو، مفخرة الشعر الألباني، فلم يكن قط ضيفها.

لعل بعض المدعوين ذكروا غرام الشاعر الأخير خلال إحدى تلك السهرات على أمل تسلية القائد. فاضطر الآخر للقهقهة: «ها- ها- ها» إلى أن انطفأت ضحكته شيئا فشيئا، وأخلت المكان- على دهش من الجميع- لنظرة سوداء. كان يحسب أن بمقدوره أن يمنعه عن الحياة، في حين أن العكس هو الذي حدث. وربما شعر بذلك فغضب قائلا: «من هي إذن تلك الـ*آنا*. غ؟. ماذا يفعل الرفاق في الأمن، هناك في الشمال؟. من المسؤول عن الملفات والتحقيقات والتفتيش على الطرق؟» لكن على ما يبدو، فإن كل هذا فات أوانه الآن.

سابقا، قبل أن تأتي هي نفسها لزيارته، كان الميت يشعر بحضورها. وحدها هي، كما الليل للنجوم، بعثت الشاعر من الظلمات. وإذا أمكن لهذا الهوى الأخير، أو هذه الوردة الكئيبة أن تولد وتزدهر، فذلك لأنها تمت تحت رعايته.

لم يكن بوسع أحد من المدعوين أن يحزر قلق القائد. كان قد اعتراه إحساس بأنه يحتفظ بالشاعر تحت سلطته ما دام هذا الأخير على قيد الحياة، لكنه كان يعرف أنه بالموت وحده سيفر من سلطانه. والحال

هذه، كان الموت بالتحديد الشيء الوحيد الذي ليس بوسعه منعه عن القيام به..

«أيها العظيم، لتكن رحيماً بالشاعر». وأنا أتذكر بيت الشعر هذا تساءلت فيما لو قيل للقائد: «أيها الطاغية اعرض سخائك الفائق مع الشاعر!». فهل سيقال للشاعر حين تأتي ساعة الحساب الأولى: «اعرض واسع رحمتك حيال الطاغية؟». ها.. ها.. ها..! وأما عن زيارات الديكتاتور للشاعر في صرحه... بما أن ذلك لم يحدث، ولن يكتب عنه أبداً، فهذا يعني أن الآخر قد هلك.

لم يكن بوسعي أن أزيح نظري عن المصابيح البعيدة المتلألئة حين تذكرت ما أسرّ به أحدهم لي من أنه - في تلك الأيام بالتحديد- كانت تجري في تيرانا محاكمة أفراد أسرة منافسه المبعد، كانوا يحملون إليه كل مساء أشرطة فيديو سجل عليها كل شيء، أما هو، فكان بصحبة زوجته وأطفاله وشرطته وزوجات أبنائه يضحك ساخراً ويهزأ بالمتهمين الذين تكبل الأصفاد معاصمهم ويوسعون شتماً وضرباً، مهانين، شعرهم محلوق، هؤلاء المتهمون هم أنفسهم الذين شاطروهم عطلتهم الصيفية قبل فترة وجيزة.

12

لا شك بان هذا هو الفصل الأخير الذي ستمضيه الأسماء الثلاثة المتجانسة – المدينة والبحيرة والشاعر – جنباً إلى جنب. ستظل حماية البحيرة مؤمنة من قبل اليونسكو؛ وبالنسبة لمصير المدينة فقد بقي مجهولاً، أما الشاعر، فلم يخف قط استعداداته للرحيل. لم يدع شيئاً للصدفة: لا الأثر الباهت للحجرة الباردة ولا للطلاء الذي يغطي أظافر *أنا. غ*، ولا زوبعة القائد، ولا الوعيد العظيم..

أصبح الوقت متأخراً، لعله تجاوز منتصف الليل عندما ألفيت نفسي وسط أرض يباب لدى خروجي من زقاق. كان الجو بارداً جداً، ورحت أتأمل قبة السماء لا سيما وأن النجوم كانت تبدو بعيدة. جاء الخريف من

هنـا، ولا بـد أن أرى الإوز الرمـادي يمـر سـريعاً نحـو الأصقاع النائية.

كان الطائر الأخير الشامخ يوشك أن يبدأ طيرانه بحزن. حاولت أن اهتف: «لأي غاية ستحلق، أنت، أيها المهاجر العظيم؟ وأين ستتركنا، نحن التعساء؟».

دار آرام للثقافة والكتب
دمشق - هـ 6316870 - 6816234
تلفاكس 6316870، ص.ب 36130